بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية اللغة العربية وأثرها على اللغات الأخرى

بحث من إعداد

الأستاذ الدكتور محمد خضر عريف

الأستاذ بقسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبد العزيز – جدة

المملكة العربية السعودية

مقدمة

نشأة اللغة العربية وأقسامها

على الرغم من أن العربية قد نشأت في أقدم مواطن الساميين، إلاّ أن ما وصل إلينا من آثارها يُعد من أحدث الآثار السامية. فبينما يرجع أقدم ما وصل إلينا من آثار الآكادية إلى ما قبل القرن العشرين قبل الميلاد، ومن آثار العبرية إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومن آثار الفينيقية إلى القرن العاشر قبل الميلاد، ومن آثار الآرامية إلى القرن التاسع قبل الميلاد، نرى أن أقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول قبل الميلاد، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية لا يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد، وذلك لعدم اهتمام العرب القدماء

بالتدوين، ولأن مدوّناتهم كانت في معظمها على الجلود والعظام، وهي أدوات تبلى ولا تبقى على مر القرون.

وعلى ضوء ما وصل إلينا من آثار العربية يمكن تقسيمها إلى قسمين: البائدة والباقية.

أما العربية البائدة، وتسمى كذلك عربية النقوش، فتطلق على لهجات كانت تتكلمها عشائر عربية تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين وفي داخل هذه الحدود، وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام.

أما العربية الباقية فهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها، والتي لا تزال تُستخدم عند الأمم العربية لغة أدب وكتابة وتأليف، وقد نشأت هذه اللغة في بلاد نجد والحجاز. وقد وصلت إلينا العربية الباقية عن طريق آثار العصر الجاهلي، وآثار العصور الإسلامية المختلفة. أما قمّتها فهي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

آثار العربية البائدة:

يطلق اسم العربية البائدة على بعض لهجات عربية كانت موجودة في واحات تيماء والحجر أو مدائن صالح ومنطقة العُلا في شمال الحجاز، ولم تصل إلينا هذه اللهجات إلاّ عن طريق نقوش عُثر عليها في مطلع القرن العشرين في مساحة واسعة تمتد من دمشق إلى العُلا، وكثير من هذه النقوش عُثر عليه في واحتي الحجر وتيماء.

وتتفق اللغة التي دوّنت بها هذه النقوش مع العربية الباقية في كثير من مقوماتها وخصائصها في الأصوات والقواعد والمفردات. فهي تشتمل على معظم الأصوات التي تميزت بها العربية الباقية عن سائر اللغات السامية أخواتها أو يكثر ورودها فيها دون غيرها، كأصوات الذال والثاء والغين والضاد، كما تشتمل على أهم ميّزة لقواعد اللغة العربية وهي الإعراب. غير أن العربية البائدة تختلف عن العربية

الباقية بشدة تأثرها باللغة الآرامية. ومن مظاهر اختلافها في القواعد أداة التعريف، فهي في هذه اللهجات حرف الهاء أو (هان) كما هو الشأن في العبرية، على حين أنها (أل) في الباقية.

وتنقسم النقوش التي وصلت إليها العربية البائدة عن طريقها إلى قسمين: قسم شديد التأثر بالآرامية، وقسم أقل تأثراً بها وأدنى إلى العربية الباقية.

أما نقوش القسم الأول فضحلة المادة لا تشتمل إلاّ على بعض أسماء الأعلام وبعض عبارات قصيرة، وتنقسم باعتبار المناطق التي كشفت فيها والعشائر التي يظن أنها استخدمتها إلى ثلاث مجموعات: النقوش اللحيانية، والنقوش الثمودية، والنقوش الصفوية.

فالنقوش اللحيانية تنسب إلى قبائل لحيان، وقد اختلف العلماء في تحديد المنطقة الجغرافية التي كانت تعيش فيها هذه القبائل، ولم يصلوا بصددها إلى رأي قاطع.

وتنسب النقوش الثمودية إلى القبائل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وذكر مساكنها مراراً، وقد عثر على النقوش في المواطن نفسها التي يعتقد العرب أنها كانت مساكن ثمود، ويرجع تاريخ معظمها إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد.

وتنسب النقوش الصفوية إلى المنطقة التي كشفت على مقربة منها وهي منطقة الصفا، فقد عثر عليها في حرة واقعة بين تلول الصفا وجبل الدروز في الشام، ويرجع تأريخها إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد.

أما القسم الثاني من هذه النقوش فأغزر مادة من القسم الأول، وأقل تأثراً باللغة الآرامية وأدنى منه كثيراً إلى العربية الباقية في مفرداته وأسلوبه وقواعده، مع أن المنطقة التي كشفت فيها نقوشه لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كشفت فيها نقوش القسم الأول.

ويضم هذا القسم ثلاثة نقوش: نقش النمارة، ونقش زَبَد، ونقش حوران. وقد عثر على النقش الأول في منطقة الصفا السابق ذكرها، ويرجع تاريخه إلى سنة 328 بعد الميلاد وهو يشير إلى قبر امرئ القيس بن عمرو الذي كان من ملوك الحيرة وامتد نفوذه إلى الشام، وقد دوّن هذا النقش بالرسم النبطي المتصل الحروف.

أما نقش زبد فيشتمل على سطرين وقد عثر عليه في الأطلال المسماة بزبد وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة حلب في الشام، ويرجع تاريخه إلى سنة 512 أو 513 بعد الميلاد، وهو مدوّن بثلاث لغات: العربية البائدة – السريانية – الإغريقية. ولم يبقَ من قسمه العربي إلاّ سطران يشتملان على كلمة عربية هي (الإله) وعلى أسماء أعلام عربية. أما نوع الرسم الذي دوّنت به هذه القطعة فمشتق من الرسم النبطي المتصل الحروف، ويمثل الرسم العربي في أقدم مراحله.

أما نقش حوران فقد عُثر عليه في منطقة حوران الواقعة جنوب دمشق، وهو منقوش على حجر ويرجع تاريخه إلى سنة 468 بعد الميلاد، وهو مدوّن بلغتين: العربية البائدة والإغريقية، وقد وصل إلينا قسمه العربي سليماً كامل الكلمات، ولا تختلف اللهجة التي دوّن بها هذا القسم عن اللغة العربية الباقية إلاّ في أمور يسيرة.

العربية الباقية:

وهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها والتي لا تزال تُستخدم لدى الأمة العربية لغة أدب وكتابة وتأليف، وقد نشأت هذه اللغة بين نجد والحجاز ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل أخواتها الساميات، وتشعبت منها اللهجات المنطوقة في العصر الحاضر.

ولا نعلم شيئاً عن طفولة هذه اللغة إذ لم يعثر العلماء في مواطنها الأولى في نجد والحجاز على آثار منقوشة أو مكتوبة تلقي ضوءاً على حالتها الأولى. وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يُعرف بالأدب الجاهلي، وهو عبارة عن آثار أدبية تُنسب لطائفة من شعراء العصر الجاهلي وحكمائه، ولكنها لم تجمع وتدون إلاّ في

القرون الأولى للعصر الإسلامي، ويرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس بعد الميلاد على أبعد تقدير، وهي تمثل اللغة العربية الباقية في قمة اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مراحل كثيرة من التطور والارتقاء.

صراع لهجاتها وتغلب لهجة قريش:

انقسم المتكلمون بهذه اللغة منذ أقدم عصورهم إلى قبائل شتى وطوائف عديدة تختلف كل طائفة منها عما عداها في بيئتها الجغرافية وما يكتنفها من ظروف طبيعية واجتماعية، وما تمتاز به من نواحي الوجدان والتفكير وما أتيح لها من وسائل الثقافة.. إلخ.

وقد اشتبكت من جراء ذلك اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي كُتِب النصر فيه للهجة قريش، فطغت على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة واستأثرت بميادين الأدب شعرها وخطابتها ونثرها في مختلف القبائل العربية، فأصبح العربي أياً كانت قبيلته يؤلف شعره وخطابته ونثره الأدبي بلغة قريش. وقد ساعد على تغلب هذه اللغة عوامل كثيرة من أهمها ما يلي:

1- عامل ديني: فقد كانت قريش جارة البيت العتيق يقيمون حوله ويقومون بسدانته، وكان البيت حرماً مقدّساً في نظر معظم القبائل العربية في الجاهلية، يحجّون إليه ليؤدوا مناسكهم ويزوروا أصنامهم ويقدّموا لها القرابين، وقد أعطت جيرة البيت لقريش نفوذاً دينياً في الجاهلية.

2- بجانب هذا السلطان الديني كان لقريش سلطان اقتصادي كبير، فقد كان مقدار كبير من التجارة في يد القرشيين الذين كانوا ينتقلون بتجارتهم في مختلف بقاع الجزيرة العربية من الشام شمالاً إلى أقاصي اليمن جنوباً، ويقومون في مختلف الفصول برحلات تجارية منظمة من أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وبفضل هذا النشاط التجاري أصبح زمام الثروة بيد قريش.

3- تحقق لقريش بفضل نفوذها الديني والاقتصادي وبفضل موقع بلادها وما كانت تمتاز به من حضارة ونعيم تحقق لها بفضل هذا كله نفوذ سياسي قوي في سائر بلاد العرب في العصر الجاهلي.

4- كانت لهجة قريش أوسع اللهجات العربية ثروة وأغزرها مادة، وأرقاها أسلوباً وأدناها إلى الكمال، وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول.

فجميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب اللغوي كانت مهيَّأة لتغلب لهجة قريش على اللهجات العربية الأخرى. فمن المقرر أن الصراع بين لهجتين محليتين ينتهي بتغلب إحداها على الأخرى في حالتين:

أولاهما: أن يكون لأهل واحدة منهما نفوذ على أهل الأخرى. ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات النفوذ، شريطة ألا تقل عن المنطقة الأخرى حضارةً وثقافةً وآداباً.

ثانيتهما: أن تفوقَ إحدى المنطقتين الأخرى في ثقافتها وحضارتها ومقومات لغتها وآدابها، ففي هذه الحالة تنتصر لهجتها وإن لم يكن لها سلطان على المنطقة الأخرى.

وإذا كانت إحدى هاتين الحالتين تؤدي لا محالة إلى تغلب اللهجة المتوفرة فيها هذه الشروط، فمن باب أولى إذا توفرت كل الشروط للهجة محلية كما كان شأن لهجة قريش، فقد كان لأهل هذه اللهجة السلطان الديني والاقتصادي والسياسي، وكانت أكثر أخواتها ثروة وأغزرها مادة وأوسعها ثقافة، وأقدرها على التعبير عن مختلف فنون القول.

ومن المقرر كذلك في قوانين علم اللغة أن اللهجة المحلية التي يتاح لها التغلب تصبح عاجلاً أو آجلاً لغة الآداب، فتستعمل في الكتابة والتأليف والأدب عامة شعره ونثره، وهو ما حدث للغة قريش، فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب، فبها كان ينظم الشعر، وتُلقى الخطب، وتُرسل الحكم والأمثال، وتدوَّن الرسائل وتتفاوض الوفود، ويتبارى الأدباء

وتُجرى المناظرات في المنتديات في مختلف بلاد العرب ومختلف قبائلها، وقد تحقق لها ذلك قبل بعثة الرسول صلّى الله عليه وسلَّم بزمن غير قصير. لذا فالراجح أن لغة قريش هي أصل اللغة العربية الباقية المعاصرة [1].

(1) أهمية العربية في الوقت الحاضر:

قد يعجز الأديب مهما بلغت فصاحته وحلّق بيانه أن يلم بكل مظاهر الجمال والتفوق في اللغة العربية. كما يعجز الباحث المتقصي أن يحصي كل أو بعض أسرارها وإبداعها. وما سنورده في هذا البحث ما هو إلاّ قطرة في يمّ العربية العظيم وعالمها المليء بالجلال والجمال.

1-1 الأهمية التاريخية:

تعتبر العربية في الوقت الحاضر أهم اللغات السامية على الإطلاق. وتأتي أهميتها من العدد الهائل للناطقين بها لغةً أُمّاً. بالإضافة إلى تأثيرها الديني والفكري في مناطق كثيرة من العالم المعاصر.

واللغات السامية فرع للفصيلة السامية – الحامية، وتتضمن عدة لغات بعضها مندثر والبعض الآخر ما زال حيَّاً وفي مقدمتها العربية. وتمتد هذه اللغات في منطقة يحدها من الجنوب الشرقي الخليج العربي، ومن الشمال الشرقي بلاد ما بين النهرين ومن الجنوب الغربي هضبة الحبشة ومن الشمال الغربي البحر المتوسط.

ويوضح هذا الرسم الشجري اللغات التي تنتمي إلى الفصيلة السامية:

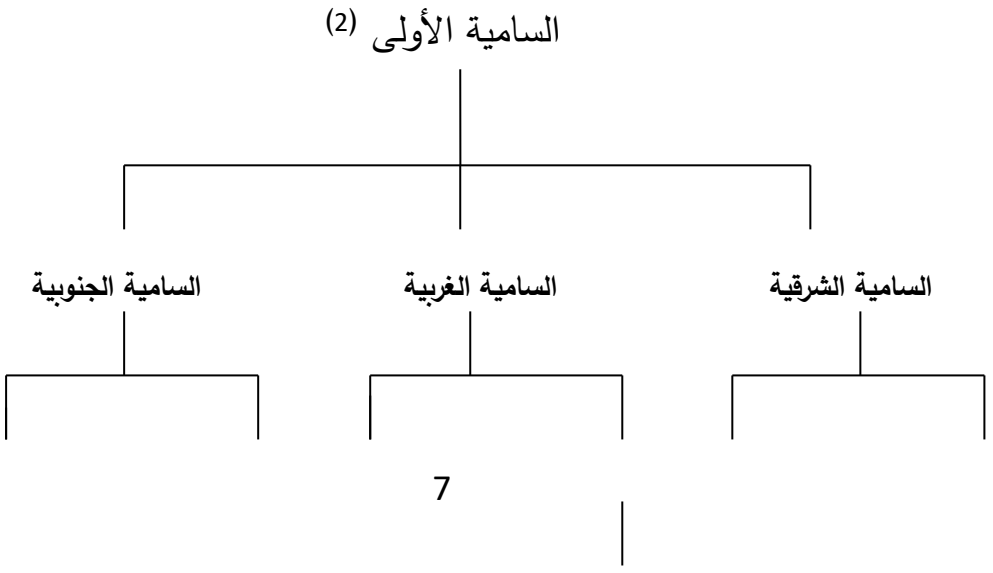

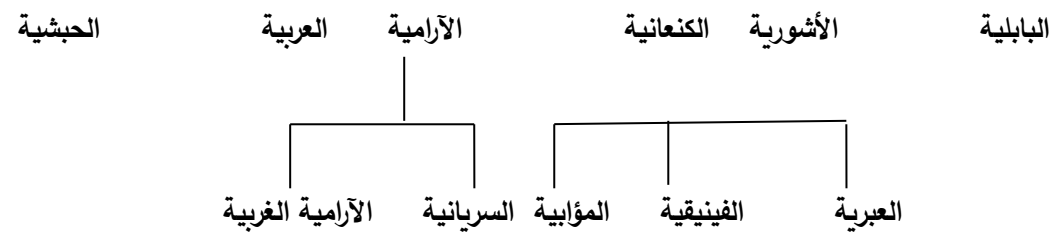

ومن خلال الرسم الشجري السابق نجد أن العربية تأتي في الجيل الثالث من اللغات السامية بينما تأتي العبرية في الجيل الرابع، وهذا يدل على أن العربية أعرق من العبرية؛ لأن الفارق بين جيلين قد يصل إلى ألف سنة، وهو خلاف ما يعرفه كثير من الناس من أن العبرية أعرق من العربية.

ومن المسلّم به لدى معظم المستشرقين المحدثين أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها، وأنه لا تكاد تعدلها في ذلك أي لغة سامية أخرى، ويرجع السبب في ذلك إلى نشأتها في أقدم موطن للساميين وبقائها في منطقة مستقلة منعزلة، فقلَّتْ بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ولم تذلَّل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم.

ومن أبرز من ذهب هذا المذهب من المُحدثين (أولْسهوزن) (Olshoawsen) في مقدمة كتابه عن العبرية، إذ يرى أن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة السامية الأولى [3].

ويربط بعض الكُتّاب العرب المعاصرين أهمية العربية في الوقت الحاضر بمقدرتها الفائقة على الصمود دون تغيير جذري يذكر في تركيبها لأكثر من ستة عشر قرناً خلاف ما حدث للّغات السامية الأخرى التي تغيَّر بعضها تغيّراً جذرياً.

يقول الدكتور السعيد محمد بدوي في ذلك: " تنفرد اللغة العربية بأن مجموع محصولها اللغوي الذي يستخدمه أبناؤها في الوقت الحاضر يرجع في التاريخ إلى أكثر من 1600 عام، ولا توجد لغة على ظهر الأرض لها مثل هذه الخاصية. فالقرآن الكريم والحديث الشريف، والشعر الجاهلي وأدب صدر الإسلام، والأدب الأموي وتراث العصر العباسي وما تلاه، ليس مجرد تراث تاريخي مرحلي، بل هو معين فكري لغوي

حيّ لا تغترف منه الثقافة العربية المعاصرة فحسب، بل إنه ذاته قسم أساسٌ قائم برأسه من حصيلة الثقافة العربية المعاصرة " [4].

ويتفق مع الدكتور البدوي الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم السابق، الذي يقول: " واللغة العربية تتميز بين اللغات بصفات فريدة، فهي من اللغات القليلة إن لم تكن اللغة الوحيدة التي بقيت قدرتها التواصلية عبر أكثر من ستة عشر قرناً من الزمان، ولو أن عربياً بُعث اليوم من خلف هذه القرون لتحدّث إلى المعاصرين العرب فأفهمهم وفهموا منه. وها نحن أولاء نقرأ اليوم شعراء العرب في الجاهلية كما نقرأ شعر العصور الإسلامية والشعر العربي المعاصر. وإن الفضل في هذا يرجع إلى القرآن الكريم كتاب الله القديم الذي استودعه شريعته السمحة الخالدة، الإسلام " [5].

فنجد أنه من الناحية التاريخية نجحت العربية في حمل الثقافتين الإسلامية والعربية لأكثر من ستة عشر قرناً.

وقد لاحظ كثير من مؤرخي الغرب هذه المقدرة اللافتة في العربية. ومن هؤلاء باتاي (Patai) الذي يقول: " من أجل أن نتصور هذه المقدرة الثقافية الهائلة للعربية، يجب علينا أن نعود بأنفسنا إلى حقب التاريخ المختلفة. فإذا عدنا إلى ما قبل الدين الإسلامي، نجد أن العربية في ذلك الوقت كانت منتشرة في جزيرة العرب فقط. وبعد أن انتشر الإسلام صحبته اللغة العربية بشكل لم يسبق له مثيل لأي لغة أخرى في العالم " [6].

ويقارن مؤرخون آخرون أهمية العربية بأهمية لغات عريقة أخرى كاللاتينية والإغريقية القديمتين. ومن هؤلاء شين (Chejne) الذي يؤكد أن الأهمية التأريخية للعربية لا تقل إن لم تزد عن أهمية الإغريقية واللاتينية. ويقول في ذلك: " إن العربية بموروثها الأدبي واللغوي الهائل تعتبر واحدة من أبرز اللغات في العالم. فقد تمتعت هذه اللغة منذ عهود سحيقة بانتشار عالمي كبير يضعها في مصاف بل في مقدمة

أعظم اللغات في العالم جنباً إلى جنب الإغريقية واللاتينية وغيرهما. ولا يعتمد ذلك على عدد المتكلمين فقط، بل على مكانة العربية الرفيعة في التاريخ، ودورها المتميز الذي أدّته ولا تزال تؤديه في نهضة المجتمع العربي والإسلامي"[7].

إن المتتبع المنصف للتاريخ البشري يمكن أن يلمس أن العربية كان لها تأثيرها الكبير جداً على الثقافة وعلى المعرفة الإنسانية.. ففي حقب معينة من التاريخ كانت هذه اللغة هي المركبة التي حملت البشرية إلى التقدّم والمدنية، والنهل من جميع العلوم بما فيها: الأحياء والطب والفلسفة والرياضيات وغيرها. فمن المعروف تأريخياً أن العلوم والفلسفة الإغريقية تَعرَّف عليها العالم بأسره من خلال ترجماتها العربية. وكان ذلك في العصور الوسطى، حين كانت أوروبا والعالم الغربي بأسره في أحلك عصور الجهل والتخلّف، إضافة إلى أن العلماء العرب أضافوا إلى ترجماتهم لعلوم الأمم الأخرى علوماً قائمة برأسها وضعوها بأنفسهم ولم يُسبقوا إليها.

1-2 الأهمية الدينية:

إن العربية هي لغة القرآن الكريم التي تخيَّرها الله لكتابه العزيز من بين جميع لغات العالم. وإن يكن الذكر الحكيم معجزة لغوية، فإنه مما يشرِّف العربية كثيراً جداً أن تكون اللغة التي تحققت بها هذه المعجزة، معجزة الإسلام الكبرى. إذ لم يبلغ كتاب ديني ولا دنيوي ما بلغه الذكر الحكيم من روعة البيان والبلاغة، ومَسّ المشاعر وأسر القلوب. وقد انقطعت آمال العرب الفصحاء دون هذا الكتاب في محاكاته أو الإتيان بشيء على مثاله. [**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**].

ولكون العربية لغة القرآن الكريم، فقد نشأت صلات قوية للغاية بين هذه اللغة وبين الإسلام. فقد أضحت العربية لغة العبادة للعالم الإسلامي بأسره. وقد انتشرت هذه اللغة في كل بقعة انتشر فيها الإسلام، حيث يتحتم على كل المسلمين أن يؤدوا كثيراً من شعائرهم بهذه اللغة.

ومع أن الكثير من الترجمات قد ظهرت في الماضي والحاضر لكتاب الله الحكيم، إلاّ أن الاتصال المباشر به لا يكون إلاّ بالعربية. إذ تختلف الترجمات القرآنية في مدى دقتها وتعبيرها عن محتوى الآيات الكريمة.

لذلك فإن للعربية أهمية دينية عظيمة، فهي اللغة الدينية لمليار ونصف من المسلمين في الوقت الحاضر. ولابد لهؤلاء المسلمين من استعمال هذه اللغة لتأدية الكثير من مشاعرهم الدينية كالصلاة مثلاً.

ولعل أهمية العربية الدينية لا يمكن فصلها عن أهميتها التأريخية لارتباطها الوثيق بالإسلام وانتشاره كما أسلفنا.

1-3 الأهمية الجغرافية:

إن العربية مستعملة لغة أماً في منطقة جغرافية مترامية الأطراف. ولهذه المنطقة الجغرافية أهمية كبيرة فيما يتعلق بموقعها وعدد سكانها، فهي اللغة الأم الأولى في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إضافة إلى مناطق أخرى.

ويتكلم العربية في الوقت الحاضر حوالى 270 مليون نسمة من مجمل سكان العالم العربي الذين يبلغون 300 مليون نسمة. أي أنه في العالم العربي كله لا يتكلم لغات غير العربية سوى 30 مليون نسمة يمثلون بعض الأقليّات العرقية، إضافة إلى أن هذه الأقليّات تتكلم العربية لغةً ثانية. ويغطي العالم العربي اليوم كما أسلفنا مساحة جغرافية كبيرة.

وبمقارنة العربية بلغات العالم الأخرى في الوقت الحاضر، فإنها تُعتبر اللغة السادسة من حيث عدد المتكلمين بها لغةً أماً. كما تُعتبر اللغة الأكثر انتشاراً في إفريقيا وغرب آسيا؛ لأنها كما أسلفنا اللغة الدينية لمليار ونصف من المسلمين ينتشرون في بقاع الأرض المختلفة.

1-4 الأهمية اللغوية:

تُعتبر اللغة العربية لغةً ناضجة لغوياً. وينطبق هذا النضج على نحوها ومفرداتها وتراكيبها وسماتها الدلالية، وتأثيرها الملموس على الكثير من لغات العالم خاصة اللغات السامية.

ومن أهم الأدلّة على نضجها اللغوي: نظام الإعراب. إن نظام الإعراب هو من أهم النظم اللغوية التي تميّز العربية عن غيرها من اللغات. فقد أعطى هذا النظام الدقيق مرونة كبيرة للمتكلمين بالعربية تجعلهم غير ملزمين بترتيب معين للكلمات يدل على الوظائف النحوية لها، بينما تلزم الكثير من اللغات متكلّميها بترتيب معيّن للكلمات يميّز الوظائف النحوية فيها. ويضيع هذا التميز إذا اختل هذا الترتيب. فالإنجليزية مثلاً تتبع ترتيب (فاعل – فعل – مفعول) أو ما يُشار إليه بـ (SVO) في علم اللغة.

فإذا أردت أن تقول: (أكل زيد طعاماً) يجب أن يكون الترتيب: (زيد أكل طعاماً) ولا يجوز أن تقول: (أَكَلَ زيدٌ طعاماً) ولا (طعاماً أَكَلَ زيدٌ) ولا (أَكَلَ طعاماً زيدٌ). بينما يجوز لك أن تقول كل ذلك في العربية، وذلك لوجود علامات الإعراب التي تلحق بأواخر الكلمات وتميّز الفعل من الفاعل من المفعول. ونظام الإعراب هذا بكل المرونة التي فيه دليل واحدٌ على فكرة النضج التي نتحدث عنها.

ومن دلائل نضجها كذلك استغناء العربية عما يدل على علاقة الإسناد فيها بين المُسند والمُسند إليه، فنقول: (محمدٌ تلميذٌ). ولا يلزمك أن تقول: (محمد هو تلميذٌ). وفي حالة قولك: (محمد هو تلميذٌ) فإن (هو) هنا تعرب حرفاً زائداً لا محلّ له من الإعراب. فحين نضجت العربية استغنت عما يدل على علاقة الإسناد، بينما لم تستغن لغات أخرى كثيرة عما يدل على هذه العلاقة، ومنها اللغات الأوروبية كالإنجليزية التي يتحتم عليك فيها أن تقول: (Muhammad is a student)، والفرنسية : (Muhammad est un etuduent).

ومن أهم جوانب الأهمية اللغوية للّغة العربية تأثيرها البيّن في لغات أخرى.

ويصف الدكتور رشدي طعيمة هذا التأثير بقوله: " تعتبر العربية اليوم أُم اللغات السامية جمعاء. كما أن تأثيرها على لغات أخرى كثيرة لا يمكن إنكاره، ومن ذلك أن جميع اللغات الآتية تستعمل الرسم العربي للحروف في كتابتها: الفارسية، والأردية، والبنجابية، والبشتو (في أفغانستان) والماليزية، والكانوري، والهوسا، وفييل (في السنغال). كما أن العبرية بها آلاف الكلمات العربية التي تنطق باختلافات طفيفة عن نطقها العربي.

كما أن للعربية تأثيرها الكبير على اللغات الأوروبية. ففي الإسبانية مثلاً يوجد ما يربو على 6.500 كلمة من أصل عربي. كما أن معظم الكلمات الإسبانية المبدوءة (بأل) هي من أصل عربي. ومن المعروف أن كثيراً من المصطلحات العلمية الأوروبية في علوم كثيرة هي من أصول عربية. فقد وضعها العرب وبقيت في اللغات الأوروبية دون أن يكون لها مرادفات لاتينية أو إسبانية [8].

ومن الكلمات الإنجليزية المهمة ذات الأصول العربية ما يلي[9]:

أمير البحر:	Admiral
القصر:	Alcazar
الغَول (السُكر):	Alcohol
الجَبْر (علم الجَبْر):	Algebra
الخوارزمي (العالم الرياضي العربي):	Algorism
المناخ:	Almanac
البرقوق (فاكهة):	Apricot
الحَبل:	Cable
الجَمَل:	Camel
القيراط (وحدة للوزن):	Carat
القهوة:	Coffee

القطن:	Cotton
الغزال:	Gazelle
الزرافة:	Giraffe
الجَرَّة:	Jar
الياسمين:	Jasmine
الليمون:	Lemon
الليمِ:	Lime
المخازن:	Magazine
من الفعل: مَسَّ	massage
المفرش:	mattress
سَفَريّ:	safari
السمسم:	sesame
السُّكَر:	sugar
الشراب:	syrup
التعريف:	tariff
السَمْت:	zenith
الصِفر:	zero

أما عن نضجها البلاغي وتفوّقها على كثير من لغات العالم بلاغياً فقد تحدث عنه الكثير من مفكري ولغويي الغرب.

والاستشهاد بآراء الغربيين له سببان: الأول أنهم مطلعون على لغات أخرى سوى العربية، وبإمكانهم مقارنتها بهذه اللغات. والسبب الثاني: تحاشي أي ادّعاء يقول: إن آراء العرب فيه نوع من التحيُّز للغتهم.

يقول (باتاي) (Patai) في تفوّق العربية البلاغي: " من واقع اتصالي المباشر ومعرفتي لكثير من لغات العالم، أستطيع أن أؤكد أنه لا توجد لغة في العالم يمكن أن تصل إلى أقل مستويات العربية البلاغية، ومقدرتها على سبر أغوار النفس الإنسانية،

والوصول مباشرة إلى الحِسّ الإنساني والتأثير فيه. وفي تلك المقدرة الهائلة لا يمكن مقارنة العربية بشيء آخر سوى الموسيقى. إن تأثير الإنجليزية على الناطقين بها يختلف كثيراً عن تأثير العربية على العرب، إذ يتفاعل العرب مع لغتهم تفاعلهم مع الموسيقى. بل إن تفاعلهم مع لغتهم أعمق وأكثر رهافةً وأشد تأثيراً " [10] .

وعن قدرة العربية الكبيرة على اشتقاق الألفاظ وظواهرها الصرفية اللافتة، يقول (إرفنج) (Irving): " إن هذه القوة (في العربية) في اشتقاق الألفاظ تقودنا إلى هذه الثروة المدهشة من المفردات التي نواجهها حين نتعلم العربية. إن الجذور الصرفية العربية الكثيرة جداً بالإضافة إلى الموازين الصرفية الكثيرة جداً أيضاً، تجعل العربية من أوسع وأعظم اللغات في العالم. وإذا أخذنا هذه الخاصية وحدها من بين جميع خاصيات العربية بعين الاعتبار، فإن العربية جديرة بأن نسعى إليها ونتعلّمها. إنها واحدة من اللغات الكلاسيكية العظيمة، وتقف جنب الإغريقية وغيرها " [11].

1-5 الأهمية السياسية:

أما على المستوى السياسي في الوقت الحاضر، فقد أصبحت العربية لغة رسمية ولغة معمولاً بها في الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة.

يقول القرار رقم (3190) الصادر في 18 ديسمبر 1973م عن الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة [12] :

" تقديراً للدور المتميّز الذي أدّته وتؤدّيه العربية في حفظ ونشر الحضارة والثقافة الإنسانية. وتقديراً لكون العربية لغة تسعة عشر عضواً من أعضاء هيئة الأمم المتحدة (في ذلك الوقت)، وكونها لغة عاملة في هيئات عالمية متخصصة كثيرة مثل منظمة التربية والعلوم والثقافة العالمية، ومنظمة التغذية والزراعة، ومنظمة العمل الدولية، بالإضافة إلى كونها لغة رسمية ولغة عاملة في منظمة الوحدة الإفريقية.

ونظراً للحاجة الملحّة إلى المزيد من التعاون الدولي.. نقرر أن تصبح اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية واللغات العاملة في الجمعية العمومية بكل لجانها الرئيسة " .

لكل الاعتبارات السابقة أصبحت العربية واحدة من أهم لغات العالم في الوقت الحاضر، وانتشر تعليمها في الدول الناطقة بها وغير الناطقة بها.

(2) بعض الأخطار المحدقة بالعربية في الوقت الحاضر :

2-1 الدعوة إلى العامّية:

يتحدث علماء اللغة في الوقت الحاضر عن مصطلح يسمى (Diglossia) أو تعدد المستويات اللغوية. ويعني هذا المصطلح استعمال مستويات مختلفة من اللغة نفسها في مواضع مختلفة، وقد يصل ذلك إلى مستويين أو أكثر. وقد ذكروا ثلاثة مستويات للّغة العربية هي: اللغة الفصحى، واللغة العامية، وبينهما مستوى ثالث هو اللغة العربية القياسية المعاصرة وتسمى كذلك (الفصيحة). ولكل من هذه المستويات استعمالاته التي لا تزال قائمة حتى اليوم. ولا ينبغي نبذ مستوى من هذه المستويات على حساب الآخر.

ولعل من أبرز الأخطار على العربية في الوقت الحاضر الدعوة إلى العامّية، فإن دعاة العامية يدَّعون أنها لغة فطرية وسهلة التعلّم إذا ما قورنت بالفصحى التي اعتبروها لغة ميّتة، لذا يرى دعاة العامية إلى استخدامها لغةً منطوقةً ومكتوبة.

ومن الواجب رفض استعمال العامية في الكتابة، إذ إن ذلك يؤدي بالضرورة إلى هجر الفصيحة وتحويلها شيئاً فشيئاً إلى لغة غريبة، كما حصل مع الإنجليزية القديمة. كما أن الدعوة إلى العامية تؤدي بالضرورة إلى تقسيم العرب إلى مجموعات

لغوية كثيرة، وتؤدي كذلك بالضرورة إلى تدمير الموروث اللغوي للعربية، واستعمال العامية لغة منطوقة أمر واقع ولا غبار عليه.

2-2 الدعوة إلى تفجير العربية:

تتلخص هذه الدعوة في السعي إلى العبث بنظام العربية المعجمي والنحوي والصرفي والإبداعي. وقد ظهرت منذ الثمانينيات الميلادية مع ظهور تيار الحداثة دعوات مفتوحة لتفجير العربية عن طريق قطع الصلة بين الدال والمدلول في معجمها، واعتبار أصحاب النصوص الإبداعية فيها أمواتاً لكي تتسنى قراءة النصوص بأي طريقة كانت لتخدم أهدافاً معينة.

إن الدلالات المعجمية دلالات اصطلاحية اتفاقية في كل اللغات وليست ملكاً لأحد، ولا يجوز العبث بها أو تغييرها. كما أن قواعد العربية النحوية والصرفية والبلاغية قواعد مسموعة عن العرب انتهى وقت الاجتهاد فيها منذ أمد بعيد. ولا يجوز لأي كان في وقتنا الحاضر أن يحاول التغيير والتبديل فيها.

2-3 الضعف اللغوي العام بين صفوف المتكلمين بالعربية:

من الملاحظ في وقتنا الحاضر أن المتكلمين بالعربية بمن فيهم المتعلمون وغير المتعلمين أصبحوا لا يميّزون بين الخطأ والصواب في لغتهم، ولا تستقيم للواحد منهم عبارة عربية واحدة. وتكاد لا تسمع أي مقولة بالعربية الفصيحة دون أن يوجد فيها الغلط واللحن والعامّي. ولعل السبب الرئيس في ذلك لا يختلف عن سبب ظهور اللحن بين العرب لأول مرة في التاريخ بعد الفتوحات الإسلامية ودخول الأعاجم زرافات ووحداناً في الإسلام. وكان اختلاط الألسن الفصيحة والأعجمية السبب الرئيس لظهور الغلط واللحن.

وكأن التاريخ اليوم يعيد نفسه، حيث إنه في العقود الثلاثة الماضية تطورت أساليب الاتصال في العالم بأسره بشكل مذهل مع ظهور الإنترنت والفضائيات،

وأصبح الاختلاط بالثقافات واللغات الأجنبية في عصر العولمة أكثر منه في أي وقت مضى، وأصبح العربي محاطاً بالأعجمية من كل حدب وصوب يتعامل بها في الحاسوب، ويسمعها في التلفاز ويقرؤها في الصحف والمجلات، كما يسافر إليها في كل عام مرة على الأقل، وأثر كل ذلك على تمكن العربيّ من لغته.

ناهيك عن الابتعاث الخارجي وتعلّم علوم بلغات مختلفة، ثم عدم محاولة تعريبها بعد تعلّمها ونقلها كما هي إلى المتعلّمين الناطقين بالعربية. فكأنّا بالعربي – اليوم – يتكلم بلغتين: إحداهما العامّية والأخرى الأعجمية، فأين تجد الفصيحة مكاناً لها في هذا الزحام اللغوي الخانق؟

وإن كان المتعلّم يستعمل العامية لقضاء حاجاته اليومية، والأعجمية في التعلّم والتعليم والأغراض العلمية الأخرى، فما حاجته إلى اللغة الفصيحة؟ ذلك سؤال كبير ينبغي علينا نحن اللغويين العرب الإجابة عليه.

3- انتماء العرب للغتهم ليس كانتماء الأمم الأخرى للغاتهم:

إن الأخطار التي تحدق بالعربية في الوقت الحاضر التي ذكرنا بعضها ما هي إلاّ أمثلة قليلة للأخطار الجسيمة التي تواجه العربية، ولا يتسع المجال لذكرها جميعاً، وفي ظل احتدام هذه الأخطار على العربية، لابد من القول: إن انتماء العربي إلى لغته يختلف عن انتماء الكثير من شعوب العالم إلى لغاتهم، فإن انتماءه إلى هذه اللغة لا ينفصم عن انتمائه الوطني والعرقي. وقبل ذلك كله انتمائه الديني والعقدي.

ولعله مما يلفت النظر أن العربي قد سُمّي بهذا الاسم تبعاً لاسم اللغة التي ينطق بها، وورد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: " إنما العربية اللسان "، وقد يقول قائل: وماذا في ذلك؟ إن الصينيين قد سُمّوا باسم لغتهم، وكذلك الإنجليز والإسبان والبرتغال.

ولكن الفرق بين الحالين جليٌّ حيث إن كل ناطق بالعربية لغة أماً يسمى عربياً، بينما لا يُسمى كل من نطق بالإنجليزية – مثلاً – لغةً أماً إنجليزياً، فالأمريكي

ليس إنجليزياً، كما أن المكسيكي الناطق بالإسبانية ليس إسبانياً، والبرازيلي الناطق بالبرتغالية ليس برتغالياً.

وحين دخل الإسلام شمال إفريقيا وانتشر في دولها وانتشرت معه العربية، أصبح جميع أهل هذه الدول عرباً، وما زالوا عرباً إلى اليوم، ولكن حين دخلت الإنجليزية قارة أمريكا الشمالية، والإسبانية والبرتغالية أمريكا الوسطى والجنوبية لم يصبح الأمريكيون إنجليزاً، ولم يصبح البرازيليون برتغاليين، ولا سكان أي دولة في وسط وجنوب أمريكا أسبان.

إن انتماء العربي إلى لغته انتماء ديني وعرقي ووطني، فإن كان انتماؤه لعربيته (اللغة) ناقصاً، فإن انتماءه لعربيته (القومية) لا يمكن أن يكون مكتملاً.

4- مسؤولية اللغويين العرب تجاه العربية:

من المعلوم أن اللغة العربية تدرَّس بطرائق متشابهة لكل دارسي العربية، سواء كانوا من أهلها أو من غير أهلها، أو كانوا متخصصين في العربية أو في أي علم آخر، وسواءً كانوا كباراً أو صغاراً. بينما نجد أن الإنجليزية مثلاً تُدرَّس بأوجه متباينة للغاية حسب طبيعة دارسيها. فهناك حقل تدريس الإنجليزية لأهلها (ENL) وتدريسها لغةً أجنبية (EFL)، وتدريسها لغةً ثانية (ESL)، وتدريسها لأغراض خاصة محددة (ESP). وكل حقل من هذه الحقول يختلف جذرياً عن الآخر في طرائقه وأساليبه وأهدافه ومضمونه. فهل نفعل ذلك حين ندرّس العربية؟

إنَّ (تفصيل) المادة اللغوية على احتياجات الطلاب وقدراتهم أمر لابد منه، وإلاَّ كانت الحلّةُ اللغوية التي يلبسونها إما ضيقة للغاية أو فضفاضة للغاية، وهو ما نحن فيه الآن.

وإذا شبّهنا النحو بمجموعة من الأدوية الناجعة لمجموعة من العِلل اللغوية، فإن تقديمه بطريقة واحدة وكمية واحدة إلى كل المتعلمين يشبه تماماً إعطاء أدوية القلب والمعدة والكُلى والزكام والحرارة لمريض القلب مثلاً.

إنّ من مسؤولية اللغويين العرب اليوم أن يسعوا إلى تنخيل النحو العربي، ويجب أن يُختار من النحو ما هو مناسب ومهم لدارسي العربية، كل فئة حسب احتياجاتها وقدراتها، مع الإفادة من كشوف ومعطيات العلوم اللغوية الغربية النظرية منها والتطبيقية في تعليم اللغات، وعلى الأخص كشوف علم اللغة التطبيقي: (Applied Liguistics).

خاتمة

إن من واجب هذه اللغة على أبنائها أن يحبوها ويخلصوا لها انطلاقاً من شعورهم بأنها جزء من انتمائهم الديني والعرقي والوطني. كما أن مسؤولية علماء اللغة العرب أن يطوّروا حقول تدريسها لأهلها وغير أهلها بالإفادة من معطيات علم اللغة الحديث بشقيه النظري والتطبيقي.

لقد فخر الصينيون بلغتهم الأم في معقل الأمريكيين وفي عقر دارهم، ورفعوا لافتاتهم برموزهم الصينية أينما وُجدوا في أمريكا وغيرها، وكذلك فعل اليابانيون وغيرُهم وغيرهم. ونحن أولى منهم بأن نفخر بلغتنا الخالدة. وقد بيَّنا في هذا البحث المقتضب أن أهمية هذه اللغة الشريفة قد فطن إليها الكثير من علماء الغرب، وكتبوا عنها في العصر الحديث ما قد يفوق ما كتبه العرب أنفسهم، وذلك لأن الكثير من الغربيين يلمّون بلغات أخرى، ويعلمون ما يميز اللغة العربية مقارنة بهذه اللغات.

كما ساق البحث أدلّة دقيقة على أثر هذه اللغة الناضجة على كثير من اللغات الإنسانية الأخرى، السامّية منها وغير السامّية في معجمها وتراكيبها وحروف هجائها وسوى ذلك. وتبقى الحاجة قائمة لمزيد من الدراسات المتعمقة التي تبحث في عالمية هذه اللغة ومسؤولية أهلها تجاهها، بما في ذلك مسؤولية الفرد والمجتمع والدولة.

الهوامش

1. وافي، علي عبد الواحد. (1945). فقه اللغة. القاهرة: دار نهضة مصر. ص ص 96 – 118.
2. عبد العزيز، محمد حسن. (1982). مدخل إلى اللغة. القاهرة: دار العلوم. ص 294.
3. وافي، علي عبد الواحد. المصدر السابق نفسه. ص ص 15 – 16.
4. بدوي، السعيد، ويونس، فتحي. (1983). الكتاب الأساسي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ص 10.
5. المصدر السابق نفسه. ص 2.
6. Patai, R. (1976). The Arab Mind. New York: Charles Scribner and Sons. P. 46.
7. Chejne, A. (1969). The Arabic Language: Its Role in History. Minneapolis: University of Minnesota Press. P.1.
8. طعيمة، رشدي. (1982). الأسس المعجمية والثقافية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها. مكة المكرمة: جامعة أم القرى. ص 5 .
9. البعلبكي، منير. (1979). المورد. بيروت. دار العلم للملايين.
10. Patai, R. المصدر السابق نفسه
11. Irving, T. (1957). " How Hard is Arabic? ". Modern language Journal. No. 6., p. 289.
12. United Nation Resolution – 3190 (XXVIII) of December 18, 1973.